(١)

الحج مدرسة أخلاقية

(فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ)

الحَمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، القَائِلِ في كِتَابهِ الكريمِ:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}. وأشهدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدهُ لا شَريكَ لهُ ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كلِّ شيء قدير.

وأشهدُ أنَّ سيِّدَنَا ونَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عبدُهُ ورسُولُهُ ، القائِلُ في الحديث الشريف : (مَنْ حَجَّ ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ).

اللهُمَّ صَلِّ وسَلِّمْ وبارِكْ عَلَى سيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ ، ومَنِ اهْتَدَى بِهَدْيِهِ وَسَلَكَ طَرِيقَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أما بعد :

فإن جميع العبادات تحمل في مضامينها قيمًا ومعانيَ أخلاقية سامية ، ذلك لأن الإسلام قد ربطها جميعها بمكارم الأخلاق ، فما من عبادة شرعها الإسلام من صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج ، إلا ولها أثر يظهر على سلوك الفرد في السمو الأخلاقي، بل إن هذا الأثر يتعدى الفرد إلى المجتمع ، فالإسلام ليس طقوسًا جوفاء لا علاقة لها بالواقع، ولا أثر لها في السلوك ، إذ لا يعقل أن يخرج العابد من عبادته ليغُشَّ أو يحتكر ، أو يؤذي جاره ، أو يكذب ، أو يخون ، أو

يخلف العهد أو الوعد ، إنما شرعت العبادات في جميع الأديان لترتقي بسلوكيات الإنسان ، وتسمو بأخلاقه.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، حيث يقول الحق سبحانه: {اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُون}. فالصلاة إن لم تؤثر في صاحبها وتمنعه عن الفحشاء والمنكر فلا أثر لها ولا ثمرة ، بل إنها قد تكون وبالاً على صاحبها ، لأن صلاته وسوء سلوكه تكون عامل صدٍّ عن الدين لا دعوة إليه ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلَّا بُعْدًا).

وكذلك سائر العبادات ، تسمو بتزكية النفس ، والارتقاء بها إلى مكارم الأخلاق ، فالزكاة طهرة لنفس الغني من البخل والشح والأنانية ، ولنفس الفقير من الحقد والبغض والحسد ، حيث يقول الحق سبحانه :{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} .

كذلك يعمل الصيام على تهذيب الأخلاق والسلوك ، فمن خلاله يتعود المسلم على ضبط أخلاقه وغرائزه ، فرب صائم ليس له من

صيامه إلا الجوع والعطش ، فالصوم الحقيقي لابد وأن يترك أثرًا في سلوك المسلم وأخلاقه ، وهذا ما أكد عليه نبينا (صلى الله عليه وسلم) حين قال: (... وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ ...).

وأما الحج الذي نحن بصدد الحديث عنه فهو مدرسة لتعليم الفضائل والأخلاق الإسلامية ، وتهذيب السلوك الإنساني القويم ؛ يتربى فيها المسلم على تقوى الله ، والطهر ، والعفاف ، والتحكم في غرائز النفس وشهواتها ، والتحلي بمكارم الأخلاق من الإيثار لا الأثرة، والاستغناء والتعفف لا السؤال والابتذال ، وأن يوسع على نفسه وعلى أهله وعلى الفقراء والمحتاجين لا أن يكون بخيلاً شحيحًا، كما أنه يربي في المسلم الدقة في الأقوال والأفعال ، والالتزام والانضباط ، فالحاج من خِلال حَجِّه يتوجب عليه أن يُطبِّق عمليًّا ما ربَّاه عليه الإسلام من القيم والاخلاق ، منها الحِلم ، والصبر ، والعمل ، والكرم ، والبذل ، والتضحية ، والإيثار ، والبِر ، والرحمة ، ومساعدة الضعفاء ، ونشر السلام، والتواضع ، وغير ذلك من أخلاق الإسلام التي تغرسها فريضة الحج في نفوس المسلمين ؛ ليخرج الحاج من مدرسة الحج وقد تحققت له مضامينه الأخلاقية

والسلوكية؛ لأجل ذلك ربط القرآن بين أداء الحج واستقامة السلوك الإنساني؛ فقال سبحانه:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ}، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ حَجَّ ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ).

والحج سلام كله ، فالحاج لا يخاصم ، ولا يجادل ، ولا يهيج صيدًا ولا ينفره أو يقتله ، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ}. ولا تقتصر المسالمة على الإنسان والحيوان فحسب ، بل تمتد إلى النباتات ، فالحاج مأمورٌ حتى بمسالمة النبات ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): " إن هذا البلد حرّمه الله لا يُعْضَدُ شوْكُه [أي لا يُقطع] ، ولا يُنفَّرُ صَيدُه ، ولا يَلتقط لُقطتَه إلا مَن عَرَّفها ".

إنه تدريب للمسلم على أن يَسْلمَ من أذاه البشرُ والشجرُ والحجرُ، وقد أخبرنا (صلى الله عليه وسلم) بأن المسلم هو "مَن سلم الناس من لسانه ويده". فلا يكون الحج مبرورًا يعود الحاج منه كيوم ولدته أمه إلا إذا اجتنب صاحبه الرفث والفسوق والجدال .

فعلى الحاج أن يتجنب الغيبة والنميمة والرفث والفسوق والعصيان والجدل ، وكلَّ ما من شأنه أن ينال من حجه ، وليحرص

على اغتنام هذه الفرصة التي قد لا تواتيه مرة أخرى ، وقد لا يعوضها إن ضيعها ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ ، فَتَعَرَّضُوا لَهَا ؛ لَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يُصِيبَهُ مِنْهَا نَفْحَةٌ لَا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَدًا". فليتحلَّ الحاج بمكارم الأخلاق قبل الحج، وأثناء الحج ، وبعد الحج ، وليدرك أن قبول حجِّه مرهون بمدى تخليه عن مساوئ الأخلاق وتحليه بمكارمها .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله وكفى ، والصلاةُ والسلامُ على النبيِّ المصطفى ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى .

إخوة الإسلام :

من علامات قبول الطاعة والعبادة أن تترك أثرًا بيِّنًا في أخلاق وسلوك صاحبها ، يقول الحق سبحانه : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}.

والمتأمل في مقاصد العبادات يجد أن الغاية المنشودة منها: تقوية الصلة بين العبد وربه ، وتزكية النفس البشرية ، وتهذيب السلوك والارتقاء بالخلق الإنساني ، فإذا لم تؤثر العبادة في خلق الإنسان

وتهذب من سلوكه فلا قيمة لها ولا ثمرة لها في الآخرة ، فنبينا (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول : (أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ)؟ قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (المُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ) ، ولما سئل (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا ، وَصِيَامِهَا ، وَصَدَقَتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا ، قَالَ: (هِيَ فِي النَّارِ).

ولكي ينهل الحاج من مدرسة الحج فتتحقق هذه السلوكيات الطيبة وينعم بالقبول فلابد له من أن يتحرى المال الحلال لنفقات الحج ، فقد ذَكَرَ النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ ، يَا رَبِّ ، يَا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟.

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أن يُصلحَ أحوالَنا ، وأن يُهيئَ لنا من أمرِنا رَشَدًا، وأنْ يوفق حجاج بيته لأداء فريضَةِ الحجِّ ، وأن يرزُقَنَا وإياهُم القَبُولَ.